طوق الحمامة

فى الألفة والألاف

تأليف

الإمام الفقيه

أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم

المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

حققه وصوبه وفهرس له

الاستاذ حسن كامل الصيرفى

وقدم له

الاستاذ ابراهيم الابيارى

١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف وتقديم

بقلم

الأستاذ إبراهيم الأبياري

الحديث عن ابن حزم أبي محمد على يلفتنا إلى الرجوع إلى آبائه وحيث أوطنوا ، فهو كما يقول العارفون بالأنساب ، ابن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح ابن خلف بن معدان بن صفيان بن يزيد ، مولى يزيد بن أبي سفيان . فهو من أسرة شرقية ، أول نازح منها إلى الأنداس « خلف » ، ولم تكن « لبلة » التى فى غرب الأندلس ، والتى اتخذها الآباء موطنهم ، مقام خلف الأول فيما نظن ، ولا تسعفنا المصادر بشيء مجمل أو مفصل عن تلك الأيام الخالية من حياة الجد النازح ، ولكنا نكاد نلمس من تنشئة ابن حزم وأبيه أبى عمرو أحمد بن سعيد أن الأسرة كانت على إرث من علم وآخر من نباهة وجاه مكّنا للوالد ثم للابن من بعده فى أن يكونا بين رجالات الدولة المقدورين ومن أعلامها المبرزين ، وأن يزر ابن حزم للمستظهر بالله عبد الرحمن ثم للمعتمد بالله ، بعد أن وزر أبوه للمنصور محمد بن عبد الله بن أبى عامر ولابنه المظفر بعده .

وكانت الرغبة فى العلم والإفادة منه شغل ابن حزم الشاغل ، وأعباء الوزارة صارفة ، والاضطلاع بمهام الدولة معوّق ، بَلْه ما يُحاك لأولى الأمر من دس ، ويبيّت لهم بليل ، ويزوّر عليهم من قول ، فهذا إلى غيره يعوزه رجل لا يفرغ

إلا له ولا يلتفت لسواه ، إن كلف بالبقاء للحكم يديره ، وشاء أن يخلص للمنصب يحميه . ولم تكن تلك ذات نفس ابن حزم ، فالرجل كان عالما قبل أن يكون وزيرا ، مقبلا على الاستزادة من العلم ، مشغوفا بالنظر فيه والتأليف عنه ، حريصا على أن تشيع له آراؤه وتخلد نظراته ، لهذا برم بما يرغب فيه غيره ، وانصرف عن جاه الحكم إلى جاه العلم يكتب ويناظر ويحاج .

ولسنا ممن يرى الأمر رغبة صرفت عن أختها ، ولكنا نكاد نخال بابن حزم فترة نشأ بها ، وضعفا لم يملك القوة عليه ، ثم غلبة لخصومه ، وحيلة ظافرة ، وكلمة مسموعة . فليس فى طبع الانسان أن يعدل عن جاه مطموح فيه إلى عزلة وانزواء لهذا الذي يذكره الذاكرون عن ابن حزم من رغبة فى العلم والانقطاع له . والرجل نافث على أعدائه ، واغر الصدر عليهم ، متربص بهم ، راج أن يديل منهم كما أدالوا منه ، تسمع له ذلك بين سطور كتابه هذا الذى نقدم له . ومن يحمل لخصومه ما حمل ابن حزم بعيد أن يترك الحكم راغبا عنه زاهدا فيه لرغبة فى العلم والافادة منه ، ولكن شيئا آخر جدير أن يُضم إلى تلك الرغبة وذلك الزهد ، هو قلة حيلة ابن حزم عن أن يصمد لخصومه ، وضيقه بأمرهم ذرعا . فهرب إلى حيث يجد مأمنه ، وفرغ إلى حيث يرى أنه بمنجاة من أذاهم ، وخلص إلى علمه وكتبه .

ولغير الجاه الزمنى عادى المعادون ابن حزم ، أو قل إن أردت أن تكون مع الحقيقة ، لم يكن هذا وحده داعى الخصومة وباعث هذا الشر ، بل كان أكثره هذا الذى فرّ إليه ابن حزم يرجو فيه الهدأة والطمأنينة .

فالرجل كان على رأى لا يقره عليه العلماء من حوله ، كان ظاهريًا صريحا فى غير مواربة ، جريئا لا تلين له قناة ، قائلا بما يعتقد ، ناطقا عن فكر صقلته البيئة الأندلسية بما تضم من رفاهية حرة ، وغذته من تقاليد شائعة موروثة .

والحقبة طويلة كالحقبة التى نشأ ابن حزم كفيلة بأن تزيد وتشكل ، وتغير

وتبدل فى مفهوم من هم على طواعية واستجابة لداعى البيئة وحاديها ، وما بنا أن نكشف لك أوجه الخلاف بين ابن حزم ومساجليه ، فذلك شيء يطول ومرده إلى ما ألِّف ، و إلى ما تعلم عن كل ظاهرى ، ولكنك واجد فى تنكر الناس لرأيه ونفرتهم من قوله مايقفك على أن ابن حزم كان على غير ما يرى الناس ، وأن الناس كانوا على غير ما يرى ، وأنهم رأوه ضالا منحرفا ، فسعوا به وحركوا له العامة فامتدت أيديهم إلى كتبه حرقا وتمزيقا ، وهو لا يملك إلا أن يقول :

وإن تحرقوا القراطاس لا تحرقوا الذى   تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبي   وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعونى من إحراق رق وكاغد   وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة   فكم دون ما تبغون لله من ستر

وفر ابن حزم منهم بعدما فر من الوزارة حيث يصيب الأمن المنشود ، والمقر الموجود ، يترك بادية إلى بادية ، وقد ضيق عليه فى مراده ، فيقول فى حساده :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة   ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
وإن رجالا ضيعونى لضيع   وإن زمانا لم أنل خصبه جدب

ولا أحيلك على غير موجود لتفيد شيئاً عن ابن حزم وتعرف من رأيه ، فبين يديك كتابه « طوق الحمامة » لم يسكت فيه الرجل عن شيء رآه يقوم دليلا على ما يرى إلا ذكره ، ولا يطوى فيه ما درج الناس على أن يطووا مثله ، فهو يرى أنه بسبيل التدليل على فكرة ، وما أحوج الفكرة إلا أن تبسط معها أدلتها وشواهدها لتثبت وتصح . والحب وما إليه شيء ألف الناس أن يكتموا أسراره ويخفوا ما يحيط به ، وأن ينزهوا أنفسهم عن معالقه ويظهروا البراءة من مآخذه ، وأن يطلعوا على الناس فى غير مظانه ، بعداء عن أسبابه . ويرى ابن حزم أن يعلن حيث يسرون ، ويجهر حين يكتمون ، إذ الحقيقة لا يمحصها إلا أن يشيع عنها ماله

وما عليها ، ويمهِّد لدرسها بكل ما يتصل بها . فانطلق يورد له وللجلة من حوله ما عُرف لهم وسمع عنهم ، فى غير استحياء ولا نقصان ، لا يريد تشهيراً فيما نعلم ، ولكنه أسلوبه فى الدرس ، وطريقته فى التمحيص .

هذا مثل لابن حزم يدلل على نهجه فى التفكير وطريقه فى الدرس تستطيع أن تعرف به الرجل بعض المعرفة ، ويكشف لك عن شىء مما أثاره الناس حوله وكان سبباً لتلك الحرب التى صلى بها إلى أن مات رحمه الله سنة ٤٥٦ من الهجرة .

أما عن علم الرجل وطول باعه فيه وجلده عليه وسهره له فشىء تناقله الرواة وكتبه له المؤرخون . ذكروا أن الباجى أبا الوليد سليمان شارح الموطأ اجتمع به يوما يناظره فقال له الباجى وهو يحاوره : أنا أعظم منك همة فى طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته وأنا أسهر بقنديل . فقال له ابن حزم : هذا كلام عليك لا لك ، لأنك طلبت العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالى ، ولكنى طلبته لا أرجو إلا نفعه دنيا وأخرى .

وفيه يقول ابن بشكوال : كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسعه فى علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار .

وقريب من هذا قول أبى مروان بن حيان فيما يروى عنه : كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب مع المشاركة فى كثير من أنواع التعليم القديمة من المنطق والفلسفة .

وما دمنا قد رجعنا إلى الأثبات نذكر لهم رأيهم فى ابن حزم ، فما أحقنا أن نستأنس بشيخين جليلين ، أما أولهما فهو الذهبى وإليك قوله : وكان إليه المنتهى فى الذكاء وحدة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل

العربية والآداب والمنطق والشعر ، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب .

وأما ثانيهما فالغزالى فاسمع إليه : وجدت فى أسماء الله تعالى كتابا لأبى محمد ابن حزم يدل على عظم حفظه وسلامة ذهنه .

وبعد هذا فمؤلفات الرجل كثيرة أجلها فى أصول الفقه وشروحه . يروى ابنُه الفضل أبو رافع أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تآليفه نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة .

ويهول هذا ياقوت فيقول : وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى دولة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا .

ويغريني هذا إلى أن أعود إلى لين ابن حزم أمام خصومه ، وفوزهم دونه بقلوب الملوك وعقول العامة ، ثم نيلهم منه هذا النيل الذى أسلفنا بيانه .

وقد عرّفتك بالرجل صريحا قوالا ، لا يعى رأسه الرأى إلا انحدر منه على لسانه ، ودللتك على كتابه « طوق الحمامة » شاهدَ ما أقول .

ولكن ترى هذا وحده يمكّن للخصوم من مقتل الرجل ، ويجمع العامة مع الخاصة عليه ؟ وأرى ابن خلكان يضم إلى الرأى رأيا ويزيدنا عن صراحة الرجل بيانا فيقول : وقد قال أبو العباس ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف الثقفى شقيقين ، وكان كثير الوقوع فى العلماء المتقدمين لا يكاد يسلم أحد من لسانه . فنفرت عنه القلوب واستهدف لفقهاء وقته فتمالئوا على بغضه وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه .

وقد استجابَ لهم هؤلاء وهؤلاء ، فهجر ابن حزم كرسى الحكم عن برم به بعد رغبة من الملوك عنه ، وبطش به العلماء بأيدى العامة لأنه ملك أن يقول

بلسانه فى موروث عاداتهم وتقاليدهم ، وهذه وتلك من هوى العامة ودينهم ، فما أسرع هبتهم لها وأقرب ثورتهم .

بقى أن أزيدك عن سر خلاف الرجل عن نهج قومه وخروجه على مألوفهم ، وقد سُقت إليك طرفا وكتمت طرفا : قلت لك إن آباء ستة سبقوا ابن حزم فى هذه البيئة الأندلسية ، وفيها بنوا بيوتهم ونسلوا ، وكلما مر بهم يوم أخذوا من البيئة وأعطوا ، ولم يظفر المهد بابن حزم سنة أربع وثمانين وثلثمائة إلا بعد أن أظلت سماء الأندلس هذا البيت الحزمى قرابة قرن ونصف قرن . وغير هذا البيت صحبته هذه السنون أو فوقها دون أن تحور فى بنيان عقله . وهنا مكان الطرف المكتوم ، فقد انتهيت عند سوق آباء ابن حزم الى «يزيد» وعرفتك به مولى ليزيد من أبى سفيان ولم أزد ، فاعرف أن هذا المولى كان على غير الإسلام فأسلم ، ومن الفرس أصله . ومن هنا التقت فى ابن حزم طبيعتان ، إحداهما موروثة والأخرى مكسوبة ، وقد مكنت الموروثة للمكسوبة أن تستشرى ، فكان من هذا المزاج «ابن حزم» الناقد الحر الجرىء ، ذو الأسلوب الجديد وصاحب النهج المبتدع .

وأرانى قد قلت كثيرا عن ابن حزم ولم أقل عن كتابه طوق الحمامة إلا فى معرض الاستشهاد به عن صراحة الرجل وحرصه على أن يجمع بين يدى موضوعه أدلة لا يستثنى .

وقبل أن أصلك بما حوى الكتاب وضم يعنينى أن أنقل إليك أن الذين ترجموا لابن حزم سكتوا عن ذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته ، غير « المقرى » فى نفح الطيب ، وابن القيم الجوزية فى روضة المحبين . أما ابن القيم فقد صرح باسم الكتاب فى غير موضع . وأما المقرى فقد أورد هذا الخبر ، وأنا أورده هنا لأن الأصل المنشور يفقده ، قال المقرى : قال ابن حزم فى طوق الحمامة : إنه مر يوما هو وأبو عمر بن عبد البر صاحب الاستيعاب بسكة الحطابين بمدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه . فقال أبو محمد : هذه صورة حسنة . فقال له أبو عمر :

لم تر إلا الوجه فلعل ماسترته الثياب ليس كذلك . فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عذلٍ فيمن سبانى حسنه   يطيل ملامى فى الهوى و يقول
أمن أجل وجهلاح لم تر غيره   ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له أسرفت فى اللوم فاتئد   فعندى رد لو أشاء طويل
ألم تر أنى ظاهري وأنني   على ماأرى حتى يقوم دليل

ولسنا نحاول أن ننفى عن الرجل كتابه ، وأن نضع الشك موضع ماأيقن الناس به . ففى الكتاب من الأخبار المروية عن ابن حزم والحديث عن أبيه ومعاصريه مايدفع هذا . وإنما أردنا شيئا آخر نذكرك به حين نذكرك بتلك الجائحة التى ذهبت بكتب الشيخ أو قل نالت منها .

وقد عاش الشيخ بعدها عمرا ليس بالقليل ، ولعله فرغ فى تلك الحقبة يلم ماتفرق ، و يجدد ماتحرق ، و يسد الخلل و يرقع الفتق .

و يكاد يملى علينا إهمال جل المتحدثين عن ابن حزم ذكر هذا الكتاب بين مؤلفاته أن الكتاب وضع بأخرة وقبل النكبة بقليل . وأقطع أنه كان بعد أن نبذ الوزارة ونبذته ، فقد حدث فى الكتاب عن نفسه ، فهو يقول : « و بويع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر ، بالخلافة . . . وفى إثر ذلك نكبني جيران صاحب المرية ، إذ نقل إليه عني وعن محمد بن إسحاق صاحبى أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية .

وغير هذا — ولا أكاد أقطع — أن الكتاب — وكان استجابة لرغبة صديق فقيه محدث متأدب — لو عرف لابن حزم متقدما ، وهو على غرار يفيد منه خصومه ، لذاع اسمه وشاع ولم يخف على من خفى عنهم .

أعنى أنه لم يمكّن له من الظهور والشيوع ، لذلك الذى حال بين الناس وابن حزم أن ينقلوا له و يأخذوا عنه .

وشيء أخير ، وهو أن يذكر « المقرى » نقلا عن الكتاب ما ليس فى الكتاب

المعروف للناس ، ومنه يعود الشك أقرب إلى اليقين أن الكتاب كان من بين ما امتدت إليه الأيدى ، وأن ما وجد منه بين يدي فئة كان غير ما وجد منه عند غيرهم زيادة ونقصا ، وإن صح هذا فقد يصح غيره . ولعل تلك اللفتة تكاد تملى علينا بأن الكتاب منقوص ولا يزال منه فى بطون الغيب أوراق ، لم يسعها مخطوط ولم تتصل بتدوين مدون ، ولا يعلم إلا الله مصيرها .

وبعد فأن يعرض ابن حزم للحب على ورع منه ونسك ، فيعالجه معالجة صريحة حازمة ، ويخوض فيه غير كاتم ولا مُبق فى ذلك السرد الطريف ، وعلى هذا النهج القويم وبتلك الفكرة العميقة ، والنظرة الدقيقة ، لشىء يثير الاعجاب ويدعو إلى التقدير ، وكأنى بابن حزم حين عانى الحب وذاقه ، ووجد مذاقه على ألسنة من حوله من إخوان له ، رآه بابا للحديث ، وهو العلم الناظر ، فسجل فيه رأيه مستمدا شواهده من حوله ، وما أصدقها شواهد .

وأكاد أقف ولا أمضى فبين يدى بحث طويل ممتع لأستاذ الجيل صاحب المعالى الدكتور طه حسين بك ، فصل فيه الرأى عن ابن حزم تفصيلا ، وربط بينه وبين « ستندال الايطالى » . وأفاض فى الكلام على الرجلين ، وقد كنت حريصا على أن أنفع به فأسوقه هنا كله ، إذ اقتطاعه لا يغنى ، ولكنى أكتفى بأن أشير إلى مكانه من مجلة الكاتب المصرى فى العدد الخامس من المجلد الثانى الذى صدر فى فبراير سنة ١٩٤٦

بقى على بعد هذا أن أعود إلى الصديق الناشر الأستاذ الشاعر حسن كامل الصيرفى الذى هيأ لى أن أنظر فى عمل له جدير بالقدر والشكر ، فأهنئه على جهده وما عانى ، فى أصل شاه وجهه ، وانحرفت كلماته ، فقوم منه ما وسعه التقويم ، وصوب وحقق ، فجاء صورة مقروءة أقرب إلى السلامة وأدنى إلى الصواب . ولعل الزمن والسعى يسعفانه بأصل جديد يحقق به الأمنية الأخيرة لهذا الكتاب القيم .

والله أسأل له ولى العون والتوفيق .

ابراهيم الابيارى